مسابقة الأدب العربي لطلبة السنة التوجيهية

٢ ـ ديوان البارودي

للدكتور زكي مبارك

القاتية البارودية : ما رواه الكاظمي وما رواه النقراشي — منابع الشاعرية البارودية : الشقاء بالحب ، والشقاء بالمجد ، والشقاء بالناس — وصف الحرب الروسية — البارودي في منفاه — جنازة البارودي : هل حملت على مدفع ؟ وهل ودعها رجال الجيش ؟ ...

في الكلمة الماضية نصصنا على بعض الملامح من شخصية البارودي ، في سياق الكلام عن المقدمة التي كتبها الدكتور هيكل باشا الديوان . واليوم ننص على ملامح جديدة تعين الطلبة على إدراك الشمائل النفسية والذوقية لذلك الفارس الفنان

فمن هو البارودي في شخصيته الذاتية ؟

لم يتفق لي أن أهتم بمعرفة ذاتية البارودي من الذين عاصروه وكان ذلك في الإمكان ، فقد كانت لي صلات مع الشاعرين العظيمين : شوقي وحافظ ؛ وكنت أستطيع أن أعرف منهما أشياء لو أني التفت إلى هذه الناحية ... على أن الالتفات إلى هذه الناحية لم يكن كل ما ضاع مني ، فقد كان في نيتي أن أسأل « شوقي » عن تفسير الإشارة التي مرّت في كلمته الوجيزة وهو يقدّم كتاب الدكتور محمد صبري « أدب وتاريخ » ، فقد قال كلاماً يشهد بأن للثورة العرابية أسراراً أخطر من أن تذاع ، ثم مضت الأيام والسنون ، ومات « شوقي » قبل أن أسأله عن المراد بذلك التلميح

ومع هذا ، فقد أراد القدر أن تساق إليّ أخبار البارودي بدون أن أتجشم عناء الاستخبار ، بفضل السهرات التي قضيتها مع الشاعر عبد المحسن الكاظمي في أعوامه الأخيرة ، وكان من جيراني ، وكنت أغتنم الأنس بحديثه كلما سمحت الظروف .

ومن أحاديث الكاظمي عرفت أن المروءة المصرية تمثلت لعينيه في شخصيتين كريمتين : الأولى شخصية محمد عبده ، والثانية شخصية محمود سامي ؛ ولا أريد في هذا المقام أن أذكر ما كان بين الشيخ محمد عبده والشيخ عبد المحسن الكاظمي ، فقد فصّله الشيخ مصطفى عبد الرازق باشا أجمل تفصيل في أبحاث يعرفها جمهور القراء ، وأنا أبغض الحديث المعاد

أما حديث الكاظمي عن البارودي ، فهو عجب من العجب . كان البارودي على ألسنة أصحابه يتمتع بلقب « الأمير » ، ويقول الكاظمي : إن البارودي كان « أميراً » في جميع شمائله الذاتية . وقد أكد الكاظمي هذا المعنى في أحاديثه مي عشرات المرات ، وما كان اسم البارودي يجري على لسانه إلا ظهرت على وجهه أمارات الحزن الوجيع ، وقد سألته مرة عن سر هذه الحال فقال :

كنت أسكن في حارة « قرمز » بحي الجمالية ، وكان مسكني بترفة صغيرة فوق سطح البيت ، وكان السُّلَّم مهدّم الدرجات وبدون درابزين ، وكان البارودي يرى من أدب « الإمارة » أن يردّ الزيارة لكل غريب ؛ وكنت يومئذ من الغرباء ، فقد كنت حديث العهد بالقدوم من العراق . وفي إحدى الزيارات تخوّف البارودي من ذلك السلم لضعف بصره ، فاعتمد بيده على الحائط ، فنفذ مسمار في كمه ، فمزقه أشنع تمزيق ، وما ذكرت ذلك الحادث إلا تألمت لما كان يعاني « الأمير » في سبيل الوفاء !

ومن هذا الخبر البسيط نعرف كيف كان البارودي في شمائله الذاتية ، فإذا أضفنا إلى ذلك أنه كان مفتوناً بالمجد أعنف الفتون ، وأن الأريحية المصرية كانت ملء برديه ، عرفنا أنه كان بطبيعة نفسه من الأمراء بغض النظر عن مجده الموروث

وهنا يتسع المجال لنادرة ذوقية تعد من الصور الشعرية ، وهي نادرة حدثني بها الأستاذ الكبير محمود فهمي النقراشي باشا في سنة ١٩٣١ ، قال :

كان البارودي يعرف مصيره بعد انهزام الجيش المصري في موقعة « التل الكبير » فاستدعى أحد أصدقائه من أعيان مديرية الغربية وأخبره أن في خزائنه كثيراً من الذخائر الذهبية ، وأنه يخشى أن تصير تلك الذخائر من غنائم المنتصرين ، ثم فوق بصره إلى ذلك الصديق وقال : هذه الذخائر وديعتي عندك ، فإن نفاني الإنجليز ومتّ في منفاي فهي لك مال حلال ، وإن أرادت الأقدار أن أرجع إلى مصر حياً بعد النفي فالنصف لي والنصف لك

وبعد سبعة عشر عاماً عاد البارودي من منفاه ، وطلب نصيبه من تلك الذخائر الذهبية ، فأنكرها ذلك الصديق ، وأظهر

استغرابه من أن تكون للبارودى عنده ودائع ، وقد خرج من مصر وهو خَرِيب سليب (؟ !)

واتفق أن يمرض ذلك الصديق النادر بعد شهور قصار مرض الموت ، فتجشم الشيخ محمد عبده مشقة الانتقال إليه ليفهمه أن « الدنيا لا تغنى عن الآخرة » وأن من واجبه أن يردّ بعض تلك الديون لباقى الله وهو خفيف الأوزار ، فجادت نفس ذلك المحتضر بعشرة آلاف وهو ينتظر أن يقبلها البارودى مع الحمد والثناء (؟ !)

وجاء الشيخ محمد عبده إلى البارودى بصرّة ثقيلة فيها عشرة آلاف من الجنيهات المصرية ، وهو يرجو أن يكون فى تلك الصرة عزاء للبارودى عن بلواه بذلك العقوق

فماذا وقع ؟ نظر البارودى إلى الصرة نظر الليث الشبعان إلى الثمر المعطوب ، وصاح : « لن آخذ درهما من هذه الألوف ، ويجب أن ترد حالاً إلى سارقها قبل أن يموت ، لتكوى بها جنوبه وهو سرموس ، وله الويل إن وقع بصرى عليه يوم الحساب أمام الواحد الديان »

هنا تنتهى رواية النقراشى باشا ، وقد بقى من الرواية فصل ، فما هو ذلك الفصل ؟

حدثنى من عرفوا الشيخ محمد عبده أنه كان يضنى بره وعطفه على من يقرأ فى حضرته بيتاً من الشعر بفهم وإدراك ؛ فكيف يكون حاله وهو يشهد هذه الصورة الشعرية ؟

من المؤكد أن الشيخ محمد عبده قد طرب لإيمان البارودى ، وعظمة البارودى ، وإباء البارودى . ومن المؤكد أن هذه الواقعة أقنعته بأن مصر لا تزال بعافية ، وأنها ستكون إلى الأبد من أكرم المنابت لأحرار الرجال

أكتب هذا وأنا أذكر أن هيكل باشا قال فى تقديم الديوان إن البارودى « وُلد بمصر » فبأى مكان من « مصر » وُلد هذا الفارس الشاعر ؟ وفى أى مكان مات ؟

فى شارع « غيط العدة » بالقاهرة دار تسمى « سراى البارودى » وهى سراى عبثت بها مصلحة التنظيم ففصلت بها الأفاعيل ، ولم يبق منها غير جانب هو اليوم « مخزن » لبعض المتجرين فى توافه الأشياء

فإن لم يكن البارودى وُلد فى تلك الدار ففيها أبت يده أن تقسم عشرة آلاف من الجنيهات لغرض تعجز عن وصفه ألوف القصائد والأقاصيص . ومن واجب « مصلحة الآثار العربية » أن تستبق أطلال تلك الدار يوم تفهم أن الأدب له قدسية تفوق قدسية التاريخ

إن الفرنسيين أبقوا على منزل مضعضع الأركان بشارع سان جرمان فى باريس ، لأنه مولد شاعرهم « ميسّيه » ، وإلى ذلك المنزل يحج عشاق الأدب الفرنسى . فهل يعرف شبان مصر أين يقع منزل شاعرنا البارودى فى القاهرة ، وأين تقع دار هواه فى حلوان ؟

إلى الله المشتكَى من ضياع الأدب فى هذه البلاد ، ومنه نستمدّ العون على ما يعانى الأدب من ثرثرة أهل الهنى والعقوق !

ينابيع الشاعرية البارودية

الشعر فيض من الشعور بحقائق الوجود ، وهى حقائق يحسها الناس بمقدار ، ويحسها الشاعر بقوة لا تتاح إلا لمن كان فى مثل روحه المتوقد وخياله الوثاب

والذى ينظر فى أشعار البارودى يجده أحس الحياة أعنف الإحساس ، ويراه انطبع على الشعور بما فيها من شهدٍ وصاب

وأقوى باعث عند البارودى هو الفُتُوّة ، فوجهه يشهد وآثاره تشهد بأنه كان من أكابر الفتيان

وفتوة البارودى فتوة أصيلة تأخذ وَقودها من القلب والروح ، فهى التى أشقته بالحب ، وأشقته بالمجد ، وأشقته بالناس

تنظر إلى البارودى المحب فترى فتًى فاتك السبوات فى قدسية وجلال ، فتفهم أن الحب شريعة وجدانية لا يتردد الفتى فى اعتناقها ولو كان رئيس الوزراء . فالحب عند البارودى ليس نزوة شباب يُطلب منها المتاب ، وإنما هو جذوة روحية تصل صاحبها بسرائر الوجود ، وترفعه إلى أوج الخلود

هل قرأت أشعاره فى الحنين إلى روضة المقياس ؟

وهل تذكر أنه أول شاعر فى العهد الحديث تغنى بصبوات القلوب على شواطئ النيل ؟

وهل تعرف أنه صدَح بتلك الأغانى فى أوقات كان فيها الغَزَل فناً لا يليق بعظماء الرجال ؟

إن البارودى مجّد الفتوة المصرية بتلك الأغاريد ، وجعل لمصر مكاناً فى ضمير الوجود ، فما تطرب الأريحية الإنسانية لأكرم ولا أشرف من التغنى بأوطار الأرواح فى مثل معاهد

الجيزة والروضة وحلوان ، وهى معاهد جهلها الشعراء ، وتدّر فيهم من يعرف وجوهها الصِّباح

وفى أى عصر هتف البارودى بتلك الأغاريد ؟

فى العصر الذى كان فيه بدء كتب الشعر بالبسملة موضع خلاف بين جمهور المؤلفين

ثم ننظر فنرى الشاعر للفتون بمطالع الأقمار على شواطئ النيل قد امتشق السيف ليواجه الحرب فى كريت ، أو ليخوض البلاء فى فجاج الأراضى الروسية ، وهو فى هذه الموقعة أو تلك لا ينسى مواقع هواه فى ملاعب الجيزة والروضة وحلوان

إن حائية البارودى فى وصف الحرب الروسية لو تُرجمت اليوم ووُزّعت على جنود الروس والألمان لرأوها من الأعاجيب ، وفيها يقول :

لعمرى لقد طال النوى وتقاذفت ... مهامه دون الملتقى ومطاوحُ
وأصبحت فى أرض يحارُ بها القطا ... وتَرهبها الجِنّان وهى سوارح
بعيدة أقطار الدياميم لو عدا ... سُلَيْكٌ بها شأواً قضى وهو رازح
تصيح بها الأصداء فى قَسَق الدجى ... صياح الثكالى هيجتها النوائح
تردّت بصُفُور الغمام جبالها ... وماجت بتيّار السيول البطائح
فأنجادها للكاسرات معاقلٌ ... وأغوارها للعاصلات مسارح
مهالك يَنسى المرءَ فيها خليله ... ويندُر عن سوم العلا من ينافح
فلا جوّ إلا سهمرىٌّ وقاصبٌ ... ولا أرض إلا شمّريٌّ وسابح
ترانا بها كالأسد ترصد غارةً ... مدافعنا نصب العدا ومُشاتُنا
ثلاثة أصناف تقيهنّ ساقةٌ ... فلست ترى إلا كماةً بواسلاً
تغير على الأبطال والصبح باسمٌ ... وتأوى إلى الأدغال والليل جانح
بكى صاحبى لما رأى الحرب أقبلتْ ... بأبنائها واليوم أغبر كالح
ولم يك مبكاه لخوفٍ وإنما ... توهمَّ أنى فى الكريهة طائح
فقال: اتئد قبل الصيال ولا تكن ... لنفسك حرباً إننى لك ناصح
ألم تر معقود الدخان كأنما ... على عاتق الجوزاء منه سرائح
وقد نشأت للحرب مزنة قسطل ... لها مسهلٌ بالمنية راشح
فلا رأىَ إلا أن تكون بنجوة ... فإنك مقصود المكانة واضح
فقلت : تعلّم إنما هى خطة ... يطول بها مجدٌ وتخشى فضائح
فما كل ما ترجو من الأمر ناجعٌ ... ولا كل ما تخشى من الخطب قادح

فهذه الحائية من عيون الشعر العربى ، ولو سمعها أبو فراس لسجد لها سجود الإعجاب ، فما عرفت اللغة العربية من الشعراء الفرسان أفحل من البارودى وأبى فراس

وللبارودى فى الحرب الروسية قصيدة أخرى هى الدالية ، ولكن أى قصيدة ! تلك أقباس لا تصدُر إلا عن روح مَريد ، من أرواح الفتيان الصناديد ، وفيها يخاطب أحبابه فى مصر فيقول :

نأت بى عنكم غربةٌ وتجهّمتْ ... بوجهى أيامٌ خلائقُها نُكدُ
أدور بعينى لا أرى غير أمةٍ ... من الروس بالبلقان يخطُّها العدّ
جواثٍ على هام الجبال لغارةٍ ... يطير بها ضوء الصباح إذا يبدو
إذا نحن سرنا صرّح الشر باسمه ... وصلح القنا بالموت واستقتل الجند
فأنت ترى بين الفريقين كبّةً ... يحدث فيها نفسه البطل الجعد
على الأرض منها بالدماء جداولٌ ... وفوق سراة النجم من نقعها لبد
إذا اشتبكوا أو راجعوا الزحف خلتهم ... بحوراً توالى بينها الجزر والمدّ
تشلّهم شُلّ العطاش بنت بها ... سراغمة السُّقيا وماطلها الورد
فهم بين مقتول طريح وهارب ... طليح ومأسور يجاذبه القِدّ
تروح إلى الشورى إذا أقبل الدجى ... وتغدو عليهم بالمنايا إذا غدو
وتقع كالج البحر خضت غماره ... ولا معقل إلا المناصل والجرد
صبرت له والموت يحمّر تارةً ... وينقل طوراً فى العجاج فيسود
فما كنت إلا الليث أنهنه الطوى ... وما كنت إلا السيف فارقه الغمد
ستول وللأبطال همس من الونى ... ضروب وقلب القرن فى صدره يعدو
فما مهجة إلا ورمحى ضميرها ... ولا لَبّة إلا وسيفى لها عِقد
وما كل ساعٍ بالغ سُؤل نفسه ... ولا كل طلاّب يصاحبه الرشد
إذا القلب لم ينصرك فى كل موطن ... فما السيف إلا آلة حملها إدّ

وقد تحدث فى هذه الدالية ، كما تحدث فى الحائية ، عن شوقه إلى مصر ولياليها البيض بروح لم يتحدث بمثله أحد من الشعراء

الذين سبقوه إلى الحديث عن مشاهد الوجد بهذه البلاد

ثم يقضي القدر في مصير البارودي بما قضاه ، فيشترك في الثورة العرابية ، وتقع أحداث وخطوب تنقل وطنه من الخيط الأبيض إلى الخيط الأسود ، ويلتفت فيرى دنياه خلت من الرمح والسيف ، ولم يبق إلا أن يعيش في جحيم النفي والاغتراب بلا ظفر ولا ناب

لم يكن للبارودي نية في الثورة العرابية ، فنحن نرجح أنه اشترك فيها بلا قلب ، ولو كان من جنانها لصار التاريخ غير التاريخ فقد كان من مفاوير الأبطال ، وكان يستطيع أن يرد المكروه عن بلاده لو آمن بما آمن به العرابيون ، وكان يستطيع على الأقل أن يظفر بالاستشهاد في ميدان الجهاد

ومعنى هذا الكلام أن البارودي كان يملك التفصل من تبعة الثورة العرابية ليسلم من التأذي بمواقبها السود ، ولكن فتوته أبت عليه أن يقف ذلك الموقف البغيض . فشارك إخوانه في البأساء ، واستسلم لحكم القضاء ، في سبيل الوفاء

نُفيَ البارودي إلى سرنديب وهو في يأس من المعاد . فقد كانت الظروف الدولية تنطق بأن لا أمل في تغيير مركز مصر السياسي ، وكانت الأخبار توافيه بأن مصر ضعيفة الرجاء في زحزحة الاحتلال

وفي تلك المدة كانت أحوال أهله في مصر تنتقل من ظلمات إلى ظلمات لنياب راعيها الأمين ، فكان روحه ينتقل من جحيم إلى جحيم

هل رأيت الأسد المأثور في حديقة الحيوان ، ولاحظت أنه يزأر من وقت إلى وقت ليسري عن نفسه بالزئير مع اليأس من الحرية ؟

كذلك كان البارودي ، فما ترك الشعر الحماسي في أعسر أوقات الضيق والكرب ؛ ولا سمحت نفسه بأن يتوب من التطرسة والاستعلاء

عفاء على الدنيا إذا المرء لم يعش بها بطلاً يحمي الحقيقة شدُّهُ
وإني امرؤ لا أستكين لصولة وإن شد ساق دون مسعاي قده

ويطول بلاء البارودي في منفاه ، ويستيئس من الأمجاد الحربية ، فيقبل على الأمجاد الأدبية ليضمن لنفسه الخلود

وفي تلك الآماد من البلاء يلتفت البارودي التفاتة جدية إلى ماضي الشعر العربي فيضعه في الميزان ليختار من أطايبه ما يشاء

وهل كان معاصرو البارودي يعرفون من ماضي الشعر العربي مثل الذي يعرف ؟

ثم تسمح الدنيا بأن يلقى البارودي وطنه بعد اليأس من اللقاء ، ولكنه لا يعيش في رحاب الوطن غير أعوام قصار قضاها وهو أشبه بالمكفوف ، ولعله لم يعت إلا حين عرف أن القاهرة لن تكون أمام عينيه إلا سواداً في سواد ، وكانت ليالها أشد إشراقاً من الصباح

ولم يتسع الوقت فأرجع إلى الجرائد المصرية في أواخر ديسمبر سنة ١٩٠٤ ، لأعرف كيف كانت جنازة البارودي ، وأغلب الظن أنها لم تحمل على مدفع ولم يشترك في توديعها رجال الجيش رعاية لبعض الظروف الثقال ، مع أن البارودي كان من نماذج البطولة المصرية في ميادين الحروب

انتهت دنيا البارودي ، وانقضى ما كان يعاني من بوائق الغدر والجحود ، وبقي للبارودي ما لم يبق لأمثاله من رجال السيف ، بقي شعره المسطور على ضمير الزمان ، والشاعر الصادق أخلد من الخلود

زكي مبارك

ظهر حديثاً :

كتاب

الأمصار والعمران

وهو الباب الرابع من مقدمة العلامة عبد الرحمن بن خلدون

قررته وزارة المعارف للمطالعة في السنة التوجيهية

لشعبتي الرياضة والعلوم

قدم له ، وضبطه ، وشرحه ، وجلى نظرياته العلمية

محمد عبد العزيز

يطلب من المكتبات الشهيرة في القاهرة والأقاليم

وثمن النسخة خمسة قروش

حكمت محكمة دمنهور العسكرية بجلسة ١٩٤١/٩/٢٤ في القضية رقم ٤٧٦ سنة ١٩٤١ ، ضد محمود مرسي سلامه تاجر بقالة بدمنهور بغرامة ٥٠٠ خمسمائة قرش صاغ والنشر على مصاريفه لبيعة كبريتا بسعر أزيد من المحدد بالتسعيرة .